

كيف تكتسب الأصدقاء

” بحث نسى اجتماعي “

لأديب محمد عبد الكريم

” رأس لعقل بعد الإيمان التعجب إلى الناس “

حديث شريف

يحتل علم للنفس بفرعيه التجريبي والاجتماعي اليوم مكانا كبيرا بين علوم الاجتماع، إذ يتناول بحث مختلف غايات الأخلاق والتربية والقانون، فهو يهدف إلى تكوير الشخصية الناجحة للفرد، ثم هو يتجه إلى ربطه للاء الأفراد بصلات وثيقة متساقطة من التكافل والتراحم ليقم منهم على اختلاف ميولهم وتزعاجاتهم كإنا اجتماعيا سلم البيان ثابت الأركان .

فتحن عاصر مجتمع لا يتيسر العيش فيه دون تعامل يتوم على وفاق، وتبادل للفضة تسوده روح من المودة والإخاء . وإذا كان المشرعون قد أقاموا من سلطان القانون قبة تمنع الجور وترد العدوان، فإن المشتغلين بالنفس وعلومها ليدروا أن - بما يتسمون من سبل وما يستنون من أساليب - أضرارا كثيرة، ويحولون مشكلات عديدة ما أقاموا روح الرضى بين الناس وأزالوا أسباب التنافر والتناؤد .

يقول ولیم جيمس العالم النفساني ” إن في أعماق النفس البشرية لشوقا إلى العشر برضى الناس وتقديرهم “ وهو إذ يقرر ذلك لا يتطاب من الذرد لكي يظفر بهذا الرضى غير ابتسامة وادنية أو كلمة طيبة (مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصابها ثابث وفرعها في السماء) .

واتد رسم لنا جيمس في نظريته ” الحركة تسبق العقل “ طريقا إلى اكتساب القلوب لا يكلفنا أكثر من استنثار البشر والانسام دواما بالبشاشة، فأنت حين تلاقى المبتسم يملك شعور لا إرادى على الانسجام، وحين تلاقى العابس تجزع دون ما تنسخر إلى العبوس والتقطيب . ولعل الجديد فيما يقرر جيمس أنه يطالب إليك الانسجام حين تمشى القضب، والإحجام حين تخاف عو قب الإقدام . وهو يؤكد أن الانسجام أتى تبادرها مصطنعة متكيفة تؤثر على تفكيرك فتتجه بك إلى عكس ما يباه لك باعث القضب، وأن خطوتك التي تحمل نفسك على الرجوع بها فوراً دون تفكير تفعل في عقلك ما يعده عما يتخاضد من تهور والدفاع، وإن فيما يراه فيلسوف الغرب ومن إليه لمصدقا أقول على كريم لله رحيه ” البشاشة حبل المودة ولا حبال قهر اميوب “، وقوله : ” قلوب الرجال وحشية فن رانها أقبات عليه “ .

ولقد أجمع الأوليون والآخرون من الحكماء والمشتغلين بعلوم النفس على أن النفس تواقفة بنظرتها إلى التعجب إلى غيرها، وإلى الفوز برضى من حولها، وأن السافر الذي نشهده يرجع في أكثره إلى شك يخالج النفوس في نوايا النفوس .
أوفي نظرات الناس بعضهم إلى بعض .

واقصد يذهب الاهتمام بالرضى المنشود إلى إغراق الفرد في استدرار عطف الآخرين حتى ليبلغ بالواحد منهم أن يتحصر حديثه على نفسه وما فعل وما أدى وما يتخيلها من أفكار وهو في هذا يضيق الخناق على كل من يلقاه ليفرض ذاته ويجعل بالأثرة منها محور كل قول وحديث، فالأفراط في الذاتية أو ما يسمونها بالأنا أمانة ضعف ومرضى نفسى . فما كان أسلم أن يحتاج إلى اطراء، وكما يقول جوستاف لوبون: إن من وثق بنفسه لا يحتاج إلى مدح الناس إياه ، ومن طالب انشاء دل على ارتيابه في قيمة نفسه“

يقول روبرت هيب في حديث لمندوب مجلة (سيكولوجى) ”من الحق أن نعترف أن في طبيعة البشر أموراً لا تفرحها ولا تسلم بها ولكن الاخلاق بنا أن نرى الحسن ونفضى عن الفبيح مادامنا مضطرين إلى الاتصال بالناس ومعاشرتهم وهو يضيق إلى ذلك أن سر انصرام مجال المردة بين الناس والسبب الأول الذى يفقد الرجل صديقه راجع في أكثره إلى عدم فهم المرء نفسه ثم إلى جهالة طبيعة البشر“ فنحن نتطلب في الناس كمالاً ونضع للعامية مثلاً نقيس بها كل صغيرة وكبيرة ناسين أن لنا كبشر طابع وغرائز نشترك جميعاً في إرضائها وإشباع مطالبها .

إن تمكين الألفة بين الناس وتوثيق عرى الروابط لا يتم بقا ييس تفرض على الغير وإنما بحلق وفهال تصد من الفرد لمن حوله — فالفرد إذ يعجز عن تكييف المجتمع وفق ميوله ملزم بأن يكيف نفسه بحيث يرضى قدر المستطاع أكبر جانب من المجموع المحيط به —
واقصد عالج الكتاب هذه المسألة ورسم المشتغلون بالنفس سبلاً عمالية تدنى الفرد من غايته في الرضى المنشود وتمكنه من اجتذاب قلوب من حوله ولعل خير ما طالعناه في هذا ما نشره محرر صحيفة وودرن رومانيس تحت عنوان ”اكتسب صديقاً أو أفقده، فهو يضع لاكتساب القلوب أساليباً سبعة :

الأول : بطلب النصيحة — فأنت حين تطالب المنصح من صديق تشعره بثقتك فيه وتضعه في وضع المشير مما يرضى نفسه .

الثانى : بالثناء الحقيقي — فأيس أحب إلى النفس من ثناء يسمعه صاحبها عن عمل يستحق عليه الثناء .

الثالث : بروح الراح — فالراح يجب البقاء ويتمنى على المجلس جواً مشوقاً .

الرابع - بتقديم خدمات غير منتظرة - فالمفاجآت اللطيفة والتطوع للخدمة في المناسبات يقوى الصداقة ويمكن عراها .

الخامس - بالتناضح - بالتناضح عن الخفوات .

السادس - بالاخلاص - بأن تشارك صديقك آلامه وتعيته إذا احتاج .

السابع - بحسن المعاملة - بأن تراعى شعوره وتراجع قولك وفعلك قبل إبدائه .

أما كيف يفقد المرء اخوانه فقد عدد الكاتب له سبعة أسباب :

الأول - بذل النصيحة دون ما طلب - فاسداؤك النصيح لمن لم يسألك فضول، هذا الى أنه وضع فيه تسمويد لنفسك على غيرك .

الثاني - التقدر الصريح - فالنقد اذا لم يقرن بروح التخفيف ويبدى في مجرد اشارة من طرف خفي صار لوما وتقريرا .

الثالث - بذكر متاعيك وهمومك - فلكل همومه ولا حاجة لأحد أن يضيف الى ما عنده متاعب غيره . وحديث المرهم جديد .

الرابع - بمقابلة الخدمات دون عرفان وتقدير - فمن لم يقدر للناس معروفهم حرموه اياه وابتعدوا عنه .

الخامس - بالثرثرة - فكثرة الكلام تذهب بحاسنه .

السادس - بالحساسية المفرطة - فالذي يشور دوا ما للكلمة ويتأثر من كل اشارة تهجره الناس وتبتعد عنه .

السابع - بكثرة الحوائج - فعلى العاقل الا يبدي لأخيه من الحاجة الا ما كان ضروريا وأن يراعى طاقة صاحبه على ادائها .

تلك هي مقاييس المعاصرين من المفكرين، ولعل في أقوال رسولنا الكريم لبايا يفتى وفيضا يروي، وحسبما قوله النصل "من عامل الناس فلم يظلمهم وحدثهم فلم يكذبهم ووعدهم فلم يخافهم فهو ممن كات صروته وظهرت عدالته ووجبت محبته"، ثم قوله الكريم "اصنع المعروف الى من هو أهله والى غير أهله فان أصبت أهله أصبت أهله وإن لم تصب أهله كنت أنت أهله" وقوله الحكيم "ان الله ليغض المعبس في وجوده اخوانه"، وحديثه البالغ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"، وفي هذا يقول البارودي :

ترفق فإن الرفق زين وقلمنا ينال الفقى بالانف ما كان طالبا

إذا لم يكن للراء عقل يرده الى الحلم لم يروح مدنى الدهر عاتبا

وإن هو لم يصفح عن الخلل إن هنا أقام وحيدا أو قضى العمر غاضبا

محمد عبد الكريم